﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۝٥٥ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ۝٥٦﴾ [المؤمنون: 55 - 56]

❁ مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قَبْلَهُما:

إنكار ظنّهم أنّ بَسْطَ الأموال والأولاد حال الموعود لا المتوعّد

لمّا كان من شأنهم فيما سبق من آيات أنّهم اغترّوا بحالهم، وكان الموجب لغرورهم ظنّهم أنّ حالهم في أن بَسَطَ الحقّ سبحانه عليهم من الأموال والأولاد حالُ مَنْ وعده الله خيرًا لا مَنْ توعّده شرًّا وعقابًا - جاء الكلام هنا مُنكِرًا عليهم ما كان من سوء ظنونهم وفساد اعتقادهم، تنبيهًا لمن سُبق بالسّعادة، وكُتب له الحسنى وزيادة[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَيَحْسَبُونَ﴾: (حسب) أصلٌ يدلّ على العدّ والظنّ والكفاية، والحِسْبان الحكم لأحد النّقيضين مع عدم خطور الآخر بباله؛ فهو قريبٌ من الظّنّ، وإن كان الظّنّ ترجيح أحد النّقيضين، ومن حَسِب شيئًا بمعنى ظنّه، أي: استحضره في رأسه[2]، ومعنى ﴿أَيَحْسَبُونَ﴾ في الآية موضع الحديث، أي: يظنّون ظنًّا وحِسْبانًا، وكان الواجب عليهم علم ذلك على وجه الإحاطة واليقين[3].

2) ﴿نُمِدُّهُم﴾: (مدّ) أصلٌ يدلُّ على الجرّ للأشياء في طول، وأن يتّصل شيء بشيء بطريقة الاستطالة، ومنه المدد وهو ما أمددتَ القوم في الحرب من الطّعام والماء، والمدّ مدّ الرّجل الآخرَ في الغيّ، ومن معانيه الزّيادة، ومدّه، أي: أمهله وطوّل له، وأكثَرُ الإمداد

(1) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 158.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، ومحمّد جبل، المعجم الاشتِقاقيُّ المؤصَّل: (حسب).
(3) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 7/ 475.

يأتي في المكروه، فيما يأتي المدّ في المحبوب، ومنه الامتداد بمعنى الانبساط[1]، ومعنى ﴿نُمِدُّهُم﴾ في الآية، أي: نعطيهم المال والأولاد في الدّنيا[2].

3) ﴿نُسَارِعُ﴾: (سرع) أصْلٌ يَدُلُّ على خلاف البُطْء، يقال: أسرعَ إلى شيءٍ ما، أي: أمضى إليه سريعًا، ومنه المسارعة إلى الشّيء، أي: المبادرة إليه، والسّرعة تكون في الأجسام وفي الأفعال، وسَرَعانُ النّاس المتقدّمون منهم وأوائلهم، والسّرعة دالّة على قوّة النّفاذ والاختراق، وكلّ ما ورد في القرآن الكريم فهو بالمعنى العامّ للإسراع، وهو نقيض البطء[3]، ومعنى قوله: ﴿نُسَارِعُ لَهُمْ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ إخبار من الحقّ سبحانه بالمسارعة في إيتائهم خيرات الآخرة، ومبادرتنا لهم فيها[4].

4) ﴿ٱلْخَيْرَٰتِ﴾: (خير) أصلٌ يدلّ على العطف والمَيْل، فالخير ما كان ضدّ الشّرّ، لأنّ كلَّ أحدٍ يميل إليه ويعطف على صاحبه، والخير اسمٌ جامعٌ لكلِّ المنافع في الأمور، ومنه الاختيار؛ لأنّ المرء يختار عادةً ما فيه منفعة له، ومن تعريفاته أنّه نفعٌ حسنٌ بإجازة الشّرع له، وما ورد في القرآن الكريم من لفظ الخير هو ما كان مقابلًا للشّرّ، أو ما كان بمعنى التّفضيل[5]، ومعنى المسارعة في ﴿ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ "أنّا نتعجّل في تقديم ثواب أعمالهم لرضانا عنهم حين بسطنا لهم الرّزق، وأكثرنا أولادهم"[6].

5) ﴿يَشْعُرُونَ﴾: (شعر) أصلانِ مَعْروفانِ، شعرت بكذا معناه فطنت له، ويأتي بمعنى الدّراية والعقل والفهم، وسمّي الشّاعر شاعرًا؛ لأنّه يشعر ما لا يشعر غيره، واستشعار الخوف إضماره، والشّعور هو العلم الدّقيق الذي يصيب إصابة كإصابة الشَّعر، وهو النّوع اللّطيف الدّقيق من العلم أخذًا من نفاذ الشَّعر الدقيق، ولمّا كان الشّعر دقيقًا نافذًا ممتدًّا استعمل الشّعور بمعنى الدّراية والفطنة والعقل لأنّها دقيقة خفيّة[7]، ومعنى ﴿لَّا يَشْعُرُونَ﴾، أي: لا يعلمون أنّ ما نمدّهم هو استدراجٌ لهم[8].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، والفيومي، المصباح المنير: (مد).
(2) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 43.
(3) الراغب، المفردات، وابن فارس، مقاييس اللغة، ومحمّد جبل، المعجم الاشتِقاقيُّ المؤصَّل: (سرع).
(4) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 43.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، ومحمّد جبل، المعجم الاشتِقاقيُّ المؤصَّل: (خير).
(6) الواحدي، التفسير الوسيط: 3/ 292.
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، ومحمّد جبل، المعجم الاشتِقاقيُّ المؤصَّل: (شعر).
(8) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 43.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

ظـنّ المـفـرّقـون أنّ أعطياتنا في الدّنيا إكرام لهم وهـي اسـتـدراج وفتنة ولكنّهم لا يشعرون

يطلق الحقّ ﷻ خطابًا استفهاميًا فحواه: أيظنُّ أهل الفِرَق أنّ ما يبسطه الله لهم من الأموال والأولاد في الدّنيا هو إكرامٌ لهم وتعجيلٌ لثوابهم؟ الجواب كلّا؛ فإنّ ما يفعله تعالى معهم هو مسارعة لهم في خيرات الدّنيا، وهم لا يشعرون، فالله تعالى سيكرمهم في الدّنيا، ويهينهم في الآخرة[1]، وأنّ تلك الخيرات إنّما هي من باب الاستدراج والفتنة، وكيف يشعر بها من كان منغمسًا في الضّلالة والعمى.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

الغرض من التعبير بالاستفهام في ﴿أَيَحْسَبُونَ﴾:

إنـكـارٌ لمغالطة عقلية، وتوبيخ عـلـى وَهْـمٍ مصطنع

قوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم﴾ استفهامٌ دالٌّ على إنكار الواقع وتقبيحه وتوبيخه[2]؛ لأنّه وإن كان استفهامًا في وضعه إلّا أنّ معنى الإمداد هنا استدراجهم إلى المعاصي، واستجرارهم إلى ما فيه الإثم الكثير، وهم يظنّونه من الخير والنّفع والإكرام، ومعاجلة لهم بالثّواب قبل أوانه[3].

سرّ إيثار لفظ الحِسْبان دون الظنّ:

الحُسبان أقوى في الاعتقاد من الظّنّ

آثر التّعبير بفعل الحِسْبان في قوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ﴾، وعدلَ عن فعل (الظّنّ)؛ لأنّ فعل الظّنّ يدلّ على الشّكّ، وعدم التّحقّق، وفعل الحسبان ظنٌّ راجحٌ مبنيٌّ على الحساب والتّجربة والنّظر[4]، ولأنّه رامَ من فعل الحسبان معنى الاعتقاد؛ ولذلك عيب عليهم هذا الاعتقاد[5].

دلالة التعبير بـ ﴿أَنَّمَا﴾:

استعمل ﴿أَنَّمَا﴾ في قوله تعالى: ﴿أَنَّمَا نُمِدُّهُم﴾؛ لإفادة الحصر،

(1) الفيروزآبادي، تنوير المقباس من تفسير ابن عباس، ص: 288.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 139، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 75.
(3) الزمخشري، الكشاف: 3/ 191.
(4) محمد الهلال، تفسير القرآن الثري: 18/ 55.
(5) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 13/ 192.

فإنّ الحقّ ﷻ "إنّما أعطاهم هذه النّعم ليكونوا فارغي البال، متمكّنين من الاشتغال بكُلف الحقّ، فإذا أعرضوا عن الحقّ والحالة هذه، كان لزوم الحجّة عليهم أقوى"[1].

وُهِبوا هذه النّعم ليشتغلوا بكلف الحقّ فإن أعرضوا لزمتهم الحجّة

ويجوز أن تكون ﴿أَنَّمَا﴾ من لفظين (أنّ) المؤكّدة، و(ما) الموصولة بمعنى (الذي)، والمعنى: أيَحْسَبون يا رسول الله ﷺ أنّ الذي نعطيهم في الدّنيا من مال وولد هو ثواب لهم؟ كلّا بل هو استدراج وإملاء، وليس إسراعًا في الخيرات[2]؛ لأنّ حقيقة الخيرات أن تكون خالصة من شوائب الضّرر الآجلة والعاجلة.

الغرض من التعبير بالاستعارة في ﴿نُمِدُّهُم﴾:

شبّه إغراقهم بمادّ الحياة بإمداد الجيش بقوّة إلى قوّته

التّعبير بالفعل ﴿نُمِدُّهُم﴾ من باب الاستعارة التّصريحية التّبعية، فالصّورة فيها تشبيه إغراقهم بملذّات الحياة ومُتَعِ الدّنيا بالإمداد، كأنّه جيش يمدّ بقوّة تضاف إلى قوّته، والجامع بينهما حصول الزّيادة في كلٍّ منهما[3].

معنى ﴿مِن﴾ ودلالتها وسرّ تقديم المال على البنين:

﴿مِن﴾ في قوله تعالى: ﴿نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ﴾ لبيان الشّيء الذي يُمَدّون به وهو ما الموصولة[4] من ﴿أَنَّمَا﴾، وقد بيّنت نوعَ المدد وحَصرَتْه في أمرين هما المال والبنون، يتفرّع عنهما كلُّ شيءٍ وينبني عليهما كلُّ شيءٍ، وقدّم المال على البنين لقِدَم الصّحبة في المال وأكثريّتها، فحصول الإنسان على المال يسبق في الغالب حصوله على البنين؛ ولأنّه ينشغل بالمال أكثر من انشغاله بالبنين[5] كما أنه كاشف عما به اللهو أكثر.

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 23/ 282.
(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 12/ 131.
(3) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 3/ 9.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 75.
(5) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 3/ 9.

الغرض من تنكير المال ﴿مِن مَّالٍ﴾:

جاء المال في قوله تعالى: ﴿نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ﴾ منكَّرًا، وفائدته أن يعمّ كلّ نوع من المال[1]، كالمواشي والذّهب والفضّة والحبوب والأطعمة والثّمار والعقار ونحوه، فإنّه داخل فيه.

مـــالٌ رُزِقَـــهُ الظّالمون للإمداد - عـلى كـثرتـه - حقير

فائدة التعبير بلفظ ﴿وَبَنِينَ﴾ دون (أولاد):

في قوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ﴾ استعمل لفظ الـ(بَنينَ) جمع (ابن)، ولم يستعمل لفظ (الأولاد) مع أنّه مرادف له في المعنى العامّ، إلاّ أنّ بينهما فرقًا، وهو أنّ (الابن) يقع على الذّكر، أمّا الولد فيقع على الذّكر والأنثى[2]؛ وبما أنّهم اتّخذوا من البنين وسيلة للتّفاخر ذكره هنا ولم يذكر الولد لدخول الأنثى فيه، وهو غير مراد عندهم.

الولد واقـع على الـذّكـر والأنـثـى وهـم قـد اتّـخـذوا الـبـنـين طـريـقـة للتّفاخر

إيثار لفظ ﴿نُسَارِعُ﴾ مادّةً وصيغةً:

في قوله تعالى: ﴿نُسَارِعُ لَهُمْ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ الفعل ﴿نُسَارِعُ﴾ فعل مزيد، وزنه المجرّد (فاعَلَ) دالٌّ على المفاعلة والمغالبة بين طرفين، يفعل كلّ واحد ما يفعل صاحبه[3]، فالمسارعة لهم في الخيرات بمعنى إدرارنا عليهم بالأموال والبنين في سرعة من يباري نظيره[4]، فكأنّه صوّر طرفين ممّن يفعل فعل المسارعة إملاء لهم واستدراجًا.

ألـهـاهـم الـغُـرور حـتـى ظـنّـوا أنّ الـرّبّ بعملهم مسرور

وفي التّعبير بهذه الصّيغة ﴿نُسَارِعُ﴾، والعدول عن (نسرع) إيماء إلى معنى خفيّ يقتضيه المقام؛ فالمسارعة من الله تعالى لتدفع عنهم شَرَّي الفقر والعقم، فهم يظنّون أنّ الحقّ سبحانه يحامي عنهم، ويدفع هذين الشّرَّيْن، فهُمْ على ذلك من أوليائه بزعمهم، وهذا غاية الجهل والغرور[5].

(1) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 13/ 191.
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 13.
(3) السيرافي، شرح كتاب سيبويه: 1/ 249.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 158.
(5) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 13/ 10.

غرض الكناية في فعل المسارعة:

في المسارعة كنايةٌ عن تلاحق حصول المال وتتابع إنجاب البنين

معنى فعل المسارعة في الخيرات هو ما مرّ من إمدادهم بالمال والولد، وفعل المسارعة كناية عن تلاحق حصول الأموال لهم، وتتابع إنجاب الذّرّيّة من البنين[1]، وهو تلاحقٌ وتتابعٌ متجدّدٌ بجامع دلالة الفعل المضارع على الاستمرار والتجدّد.

فائدة استعمال حرف الجر (في) في قوله: ﴿فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ﴾:

الخيرات ظرف لهم محيطة بهم تعمّهم من جميع الجهات

لمّا أراد الإشارة إلى المبالغة في المسارعة عَدَلَ عن الحرف (مِن) إلى حرف الظّرفية ﴿فِي﴾ بقوله: ﴿فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ﴾؛ للدّلالة على أنّ الحقّ ﷻ فعل بهم من المسارعة في إمدادهم بالأموال والبنين على وجهٍ يعمّهم من جميع الجهات؛ فكانت الخيرات ظرفًا لهم محيطةً بهم من جميع الجهات؛ ليكون استدراجهم على أبلغ ما يكون، ثمّ يأخذهم أخذ عزيز مقتدر، والتّعبير بحرف الظّرفية في قوله تعالى: ﴿نُسَارِعُ لَهُمۡ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ﴾ تعبيرٌ ظرفيٌّ مجازيٌّ، فكأنّه جعل الخيرات بمنزلة الطّريق الذي يقع فيه فعل المسارعة بالمشي والتّوغّل فيه؛ فيكون حرف الظّرفية ﴿فِي﴾ قرينة مكنيّة[2].

سرّ التعبير بالجمع في ﴿ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ﴾:

في قوله تعالى: ﴿فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ﴾ أورد لفظ الخيرات مجموعًا؛ لأنّه أراد منه خيرات الدّنيا والآخرة ومنافعهما، وكذلك فهو الشّيء الحلال الحَسَن ويدخل تحته المال والصّحة والطّعام والشّراب والأمن والأولاد[3].

الغرض من الحذف في: ﴿بَل لَّا يَشۡعُرُونَ﴾:

لا يشعرون بشيءٍ أصلًا؛ فلا فطنة لهم

قوله تعالى: ﴿بَل لَّا يَشۡعُرُونَ﴾ فيه مجازٌ بالحذف، فقد عطف الجملة على محذوفٍ مقدَّرٍ، أي: كلّا، لا نفعل ذلك، بل لأنّهم لا

(1) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 13/ 10.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 75.
(3) محمد الهلال، تفسير القرآن الثري: 18/ 56.

يشعرون بشيءٍ أصلًا؛ لأنّهم لا فطنة ولا شعور لهم، فهم كالبهائم لا يعلمون أنّه استدراج وإملاء[1].

دلالة ﴿بَل﴾:

لا شعور لديهم بحقائق الأمور لانخداعهم بظواهرها

وفي قوله تعالى: ﴿بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾ استعمل ﴿بَل﴾ الدّالّة على الإضراب عن الأوّل، والانتقال إلى الثّاني[2]، فأدخلها على انتفاء الشّعور، فهو إضرابٌ إبطاليٌّ انتقل فيه ممّا كان متصوَّرًا وهمًا إلى ما هو حقٌّ مكين؛ فلا شعور لديهم بحقائق الأمور، إنّما هم مخدوعون بظواهر الأمور، ولا يعلمون شيئًا عن بواطنها؛ لانعدام فطنتهم في كونهم كالأنعام[3].

سرّ التّعبير بعدم الشّعور مادّةً وصيغةً:

تهديدٌ ووعيدٌ متجدّدٌ للظّانّين بالله غير الحقّ

التّعبير بانتفاء الشّعور عنهم في قوله تعالى: ﴿بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾ فيه تهديد ووعيد[4] لمن ظنّ أنّ الحقّ ﷻ قد أمدّه بالمال والولد على ما كان منه من كفر وعتوٍّ وعناد، ثمّ جاء عدم الشّعور بصيغة التّجدّد والاستمرار، وهو شأن هؤلاء على مرّ العصور، وتطاول الأزمنة والدّهور.

المطابقة بين الحِسْبان وعدم الشّعور:

لمّا استفهم عن الحسبان استفهام تقريع قابله بعدم الشّعور في كونهم كالبهائم

لَمّا ذكر فعل الحِسْبان مستفهمًا عنه استفهام تقريع ﴿أَيَحْسَبُونَ﴾، قابله بالفعل الدّالّ على انتفاء الشّعور منهم ﴿بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾ في إضراب انتقال إلى "أنّهم أشباه البهائم لا شعور لهم حتّى يتفكّروا في ذلك الإمداد، أهو استدراجٌ أم مسارعةٌ في الخير"[5].

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 139.
(2) المبرد، المقتضب: 1/ 12.
(3) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 3/ 10.
(4) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 147.
(5) ابن عادل، اللباب: 14/ 230.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الخامس والثلاثون،
سورة الحَجّ من الآية 51 إلى سورة المؤمنون الآية 63
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الخامس والثلاثون، سورة الحَجّ من الآية 51 إلى سورة المؤمنون الآية 63
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 35 ، 804 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-77-8
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 35 : المجلد الخامس والثلاثون، سورة الحَجّ من الآية 51 إلى سورة المؤمنون الآية 63.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-77-8
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-7984898 بتاريخ 2024/11/14م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»